فى الادب

بيت الحكمة

بقلم الاستاذ محمد كامل حسين

ليسانسيه فى اللغات الشرقية والآداب العربية من الجامعة المصرية

« كان المأمون مغرماً بعلوم الأوائل وتحقيقها » هكذا يحدثنا القاضى ابن خلكان ، فى كتابه «وفيات الأعيان» . ولم يكن هو المؤرخ الوحيد الذى وصف الخليفة عبد الله المأمون بشغفه بالعلوم ، وتنقيبه على الكتب القديمة ، فكل من تعرض له يذكر هذه الناحية الهامة التى شغلت من حياة المأمون جزءاً كبيرا ، وكان لها تأثير عظيم فى العصر الذى وجد فيه المأمون ، وهو العصر الذى عرف بالنور والعرفان ، بل قد أغالى فأدعى أنه العصر الذهبى للعقلية الاسلامية ، لذلك نرى المؤرخين يذكرون المأمون اذا ذكر (بيت الحكمة) وهو هذا البناء الذى أقيم فى بغداد عاصمة العباسيين ، وكان يجمع بين جدرانه كتب الأوائل والمحدثين ، وصار كعبة العلماء والمتعلمين ، ومبعث العلوم القديمة والحديثة ، وفيه نقلت العلوم الأجنبية الى العربية ، ويدعى البعض أن المأمون هو الذى أنشأ بيت الحكمة هذا ، وذلك بسبب ابن النديم (خزانة المأمون) كما يسميه أحيانا (خزانة الحكمة) ولكنى لاأتفق مع هؤلاء الذين يقولون إن المأمون أول من أقام بيت الحكمة ، لأن الخلفاء من قبله كانوا يحبون العلم ويشجعون العلماء ، ويقربونهم اليهم ، بل لقد استدعوا بعضهم من بلادهم ليكونوا فى دار الخلافة فجاءوا يحملون العلوم القديمة والكتب القديمة إلى مقر الحكام ، واذا رجعنا إلى الوراء قبل عصر العباسيين ، نجد أن الأمويين كانوا يعنون بالعلوم عناية فائقة ، ويرسلون فى جمع الكتب من يونانية ولاتينية وقبطية يأمرون بترجمتها الى اللغة العربية ، وهم يحدثوننا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية أرسل فى طلب كتب الصنعة من مصر وغيرها ، كما ترجموا له كتب اهرون القس المصرى ، وكذلك يحدثوننا عن كتب فارسية وهندية ويونانية ترجمت إلى العربية فى العصر الأموى ، لذلك كله نقول إن الخلفاء الأمويين نشطوا فى نقل الكتب الأجنبية إلى العربية نشاطا لاتستطيع أن تقربه بالعصر العباسى ، بل هى الخطوة الأولى لهذه المجهودات الجبارة التى ظهرت فى أيام العباسيين ، ولو استمر الأمويون

فى الحكم لظهورت لهم مجهودات أكثر مما فعلها الآن ، ولكن العباسيين استولوا على أملاكهم فلم تسمح لهم ظروفهم بالاستمرار فى هذا الشأن ولما أن بنى المنصور مدينة بغداد جمع لديه عددا من العلماء سيما من اختص بالطب والتنجيم ، ولم يكتف بذلك بل أمرهم بنقل كتب الطب والتنجيم إلى العربية ، والانسان يعجب من أمر هذا الخليفة ، فانا نعلم أنه كان يرغب عن الشعراء والأدباء ، ولا يستمع لأقوالهم ويشتد عليهم النكير ، ولا يعطيهم كما كان يعطيهم غيره من الخلفاء ، نراه من ناحية أخرى يشجع العلماء ويستدعيهم ، ويأمرهم بنقل العلوم الأجنبية ، واستحضار الكتب الاجنبية ، سيما كتب الطب والتنجيم ، قد يكون ذلك كله لما يروى عنه أنه كان مريضاً بداء المعدة ، وأنه أرسل يستدعى الاطباء السريانيين من جامعة جنديسابور العلمية التى كانت أعظم مدرسة طبية فى ذلك الوقت ، وكانت تجمع أشهر أطباء هذا العصر ، ولما أن حضر اليه الاطباء أمرهم بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، كما أمر المنجمين بنقل كتب التنجيم إلى العربية ، كل هذا يدلنا على أن المنصور بدأ فى إنشاء خزانة الكتب التى عرفت فيما بعد بخزانة الحكمة أو بيت الحكمة والتى نسبت خطأ الى المأمون ، وإنا لانستطيع أن نجزم بذلك ، إنما هو رأى رأيناه ونستصوبه ، وقد يكون صحيحاً وقد يكون غير صحيح ، ولكنا نقول به وندعمه حتى يخالفنا غيرنا ويثبت لنا غيره .

ومهما يكن من شىء ، فعندنا دليل آخر يثبت ماقلناه سابقاً من أن المأمون لم يكن هو المنشىء الأول لبيت الحكمة ، فابن النديم يحدثنا أن هرون الرشيد ولى أبا سهل الفضل بن نوبخت على (خزانة كتب الحكمة) وأن حنين الشعوبى كان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والبرامكة وقد عرف عن الرشيد ميله الى الفلسفة وكلفه بكتب اليونان وغيرهم وشغفه الزائد بالاطلاع كل هذه تجعلنا نجزم بأن بيت الحكمة كان موجودا فى عصره ، وأن خزانته ملئت بأنواع كثيرة من الكتب التى أرسل فى طلبها من جميع الأقطار ، كما أنه استحوذ على مكتبة البرامكة بعد أن نكبهم ، وضمها الى خزانته ، كما استولى على كثير من الكتب اليونانية فى غزواته الكثيرة للدولة البيزنطية ، فعظمت بذلك خزانة الحكمة وصارت من الأهمية بحيث اضطر الخليفة الرشيد أن يجعل لها رئيساً عاماً هو ابن نوبخت كما عين رئيساً للمترجمين الذين كانوا يعملون فى نقل الكتب الأجنبية إلى العربية وهذا الرئيس هو ابن ماسويه كما جعل يختيشوع رئيساً للأطباء .

ورث المأمون كل هذه الكنوز العلمية ، كما ورث عن أبيه حبه للعلوم ، فشغف بالعلوم سيما الفلسفية واشتدت فى أيامه الحركة العقلية ونشطت نشاطاً لم يسبق له نظير كما أن المأمون شجع كل هذه الحركات ، شهد بذلك المؤرخون جميعاً على اختلاف نحلهم ومللهم وهاهو المؤرخ جيبون

يقول (دعا المأمون الحكمة من مراكزها القديمة فجمع له سفراؤه فى القسطنطينية وعماله على أرمينيا والشام ومصر كتب العلم اليونانية)

أمام هذا كله اضطر المأمون الى أن يعين مساعدا لمدير بيت الحكمة فكان سهل بن هرون صاحب بيت الحكمة أيام المأمون ومساعده شعيد بن هرون وسلم الملقب بصاحب بيت الحكمة ، ولما أن تولى المستعصم الخلافة جعل لبيت الحكمة رئيسين هما صفى الدين عبد المؤمن ابن فاخر وصدر الدين على بن الياس . وكان صاحب بيت الحكمة هو الرئيس العام لجميع الطوائف المختلفة التى كانت تعمل هناك كما أن عليه أن يرتب الكتب و يضع لها الفهارس والخليفة هو الذى يعين صاحب بيت الحكمة كما يعين أيضاً المترجمين و يجعل لهم رئيساً فنياً وأول هؤلاء الرؤساء هو يوحنا بن ماسويه الطبيب النصرانى الذى ولاه الرشيد وظل هذا الرجل فى منصبه إلى أيام المتوكل وكان معه أيام المأمون يوحنا بن البطريق الملقب بأمين الترجمة ، وحنين ابن اسحق الذى كان يعطيه المأمون من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية ، ويزعم بعض المستشرقين أن بيت الحكمة كان يحتوى مكتبة هى خزانة الكتب ، ومعهدا للتدريس ومرصداً ، فكانوا يظنون أن بيت الحكمة فى بغداد يشبه جامعة الاسكندرية القديمة غير أن الواقع الذى لاشك فيه أن بيت الحكمة لم يكن معهداً من معاهد التعليم يتلقى الطلبة فيه عن أساتذتهم ، ولم يتصل به هذا المرصد الذى يقولون عنه والذى أنشأه المأمون لغرض خاص به وجعله بعيداً كل البعد عن بيت الحكمة ، والمعروف عن بيت الحكمة أنه كان مقسما إلى عدة أقسام لكل فن من الفنون قسم خاص به ، فالترجمة لها قسمها ، والنسخ له قسمه ، والخزانة لها مكانها ، كما كان فى بيت الحكمة طائفة من المنجمين منهم المأمون نستطيع أن نذكر منهم يحيى بن أبى منصور وبنى موسى بن شاكر وغيرهما ثم ذكر وشهرة فى الرياضيات .

ولكن هذه النهضة التى كان مبعثها بيت الحكمة قد خبا ضوءها بعد وفاة المأمون فيقول هم يقول إن بيت الحكمة أفضل فى عهد المعتصم لأنه كان رجلا حربياً لا يميل الى العلوم الأجنبية بمقدار شغفه بالآداب سيما الشعر وكذلك الواثق الذى كان كالمعتصم . فلم نسمع فى عهدهما أى عمل جليل فى الترجمة كهذا الذى رأيناه فى عصر سابقهما ، ومن قائل أن بيت الحكمة لم يغلق بل ظل كما هو ولكن ضعف أمره وتهاون الخلفاء به

وبعد فهذه صورة مشوهة لنهضة العقل الاسلامى و يكفى أن يكون بيت الحكمة أول مكان بدئ فيه النقل ووضع القواعد لتعريف الأمم من اللغات الأجنبية إلى العربية وهذا ما يسعى اليه البعض الآن ويجدون فيه مشقة وجهدا

عبد كامل حسين